في فرض الصيام

وسلم في رمضان أجود ما يكون؛ فهو أجود بالخير من الريح المرسلة، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما.

ولقد حُكي عن يوسف الصديق عليه السلام أنه كان لا يشبع من طعام، وبيده خزائن الأرض في مصر؛ فلما سئل في ذلك، قال: أخشى إذا شبعت أن أنسى جوع الفقراء! إن رمضان شهر فريد في حياة الفرد المسلم، وفي حياة الأسرة المسلمة، وفي حياة الجماعة الإسلامية، وأنا أسميه «ربيع الحياة الإسلامية»، فيه تتجدد الحياة كلها: تتجدد العقول بالعلم والمعرفة، ويتجدد المجتمع بالترابط والتواصل، وتتجدد العزائم باستباق الخير؛ إذ تكثر حوافزه، وتقل أسباب الشر ودواعيه، وتطرد ملائكة الخير شياطين الشر، وقد عبر عن ذلك الحديث الشريف: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب جهنم، وصفدت الشياطين، وفي رواية: «ونادى مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

هذا الاحتفاء السماوي الكبير بمقدم رمضان: تفتيح أبواب الجنان، وتغليق أبواب النيران، وتصفيد كل شيطان.. دليل على أن لهذا الشهر منزلة جليلة، وأن له في حياة المسلمين رسالة عظيمة، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بتهيئة الجماعة المؤمنة للتقوى، كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة: 183) ومَن راقب حَياة المسلمين في كل عام قبل قدوم رمضان، وبعد رحيل رمضان يستيقن من هذه الحقيقة الاجتماعية الثابتة بالمشاهدة، وهي توافر الخير وعمل الصالحات في هذا الشهر، وقلة الشر والجرائم فيه.

ولهذا يجتهد الوعاظ والخطباء في أواخر الشهر، ليغروا جماهير الناس باستمرار هذه النيات الصالحة، والعزائم الصادقة على عمل الخير، وخير العمل، وكثيرا ما سمعناهم يقولون في خطبهم ودروسهم: من كان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. بئس القوم قوم لا يعرفون الله إلا في رمضان، كن ربانيا، ولا تكن رمضانيا!

وإنك لتعجب من تأثير هذا الشهر في الناس الذين انقطع حبل الصلة بينهم وبين الله ربهم وخالقهم ورازقهم؛ فإذا هم يعودون إليه في رمضان، ويعرفون المسجد، وتلاوة القرآن. وبعضهم يصوم هذا الشهر إن لم يزاول الصلاة.

ولكن.. كيف نستقبله؟

وإنك لترى أثر ذلك في أجهزة الإعلام؛ فتراها في هذا الشهر العظيم تستحي من تقديم ما لا تستحي منه في سائر الشهور، من أغان وأفلام وتمثيليات ومسلسلات ومسرحيات، بل تعد لهذا الشهر برامج خاصة، تغذي الروح، وتنمي الإيمان، وتعلي القيم، وتزكي الأنفس، وتطارد الفحشاء والمنكر والبغي، لولا ما يشوبها في بعض الأقطار من بدعة راجت سوقها، ما أنزل الله بها من سلطان، وهي ما سموه «فوازير رمضان» التي اشتكى منها العلماء والعقلاء، وقالوا: إن رمضان بريء منها، ولا يجوز أن تنسب إليه بحال من الأحوال.

كذلك نحس أثر هذا الشهر في الحياة الاجتماعية؛ حيث تزداد الأسرة تماسكا، ويزداد المجتمع تواصلا؛ فيزور الناس بعضهم بعضا، ويدعو بعضهم بعضاً على الإفطار، ويحس الفقراء بأنهم في هذا الشهر أحسن حالا، وأوسع عيشا من الشهور الأخرى؛ بسبب موائد الرحمن، التي يقدمها الموسرون للمعوزين من الناس؛ لينالوا أجر تفطير الصائم، وتنتعش المشروعات الخيرية بما يقدم إليها من مساعدات من أهل الخير، من الزكوات المفروضة التي يُؤثر كثير من المسلمين إخراجها في رمضان، ومن الصدقات المستحبة التي يتسابق الناس إليها في هذا الشهر الكريم.

ألا ما أحوج أمتنا إلى أن تستفيد من هذا في شهر رمضان؛ فهو موسم المتقين، ومتجر الصالحين، وميدان المتسابقين، ومغتسل التائبين، ولهذا كان السلف إذا جاء رمضان يقولون: مرحبا بالمطهر! فهو فرصة للتطهر من الذنوب والسيئات، كما أنه فرصة للتزود من الصالحات والحسنات. فلنتخذ من رمضان (معسكرا) إيمانيا لتجنيد الطاقات، وتعبئة الإرادات، وتقوية العزائم، وشحذ الهمم، وإذكاء البواعث للسعي الدؤوب لتحقيق الآمال الكبار، وتحويل الأحلام إلى حقائق، والمثاليات المرتجاة إلى واقع معيش.

ورحم الله أديب العربية والإسلام مصطفي صادق الرافعي الذي قال: «لو أنصفك الناس يا رمضان لسموك مدرسة الثلاثين يوما».

ويتيسر في هذا الشهر المبارك إطعام الطعام وتفطير الصوام، وذلك من أسباب مغفرة الذنوب وعتق الرقاب من النار، ومضاعفة الأجور، وورود حوض النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي: من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا نسأل الله بمنه وجوده أن يوردنا إياه. وإطعام الطعام من أسباب دخول الجنة دار السلام، ورمضان شهر تتوفر فيه للمسلمين أسباب الرحمة وموجبات المغفرة، ومقتضيات العتق من النار، فما أجزل العطايا من المولى الكريم الغفار.

وهو شهر الذكر والدعاء وقد قال تعالى: «وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [الجمعة، الآية: 10] وقال سبحانه: وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيما [الأحزاب، الآية: 35] وقال سبحانه: «وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» [الأعراف، الآية: 56] وقد قال تعالى في ثنايا آيات الصيام: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» [البقرة، الآية: 186] مما يدل على الارتباط بين الصيام والدعاء.

وفي شهر رمضان، ليلة القدر التي قال الله في شأنها: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» [القدر، الآية: 3] قال أهل العلم معنى ذلك: أن العمل فيها خير وأفضل من العمل في ألف شهر – وهي ما يقارب ثلاثاً وثمانين سنة – خالية منها وكفى بذلك تنويهاً بفضلها وشرفها، وعظم شأن العمل فيها لمن وفق لقيامها – نسأل الله تعالى أن يوفقنا على الدوام لذلك بمنه وجوده – وجاء في الصحيح عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» وهذا من فضائل قيامها وكفى به ربحاً وفوزاً.

ومن خصائصه، فضل الصدقة فيه عنها في غيره، ففي الترمذي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، سئل أي الصدقة أفضل ؟ قال صدقة في رمضان وثبت في الصحيحين عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن. وكان جبرائيل يلقاه كل ليلة من شهر رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة» ورواه أحمد. وزاد ولا يسأل شيئا إلا أعطاه والجود: هو سعة العطاء بالصدقة وغيرها.

وفي زيادة جوده، صلى الله عليه وسلم، في رمضان اغتنام لشرف الزمان، ومضاعفة العمل فيه والأجر عليه، فقد روي عنه، صلى الله عليه وسلم – كما في حديث سلمان – أنه قال – في رمضان –: «من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ولأن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا والوقاية من النار»، ففي الحديث الصحيح «الصوم جنة» أي وقاية من النار وفي الصحيح أيضا قال، صلى الله عليه وسلم، «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

ومن خصائص رمضان أن العمرة فيه تعدل حجة، فقد ثبت في الصحيحين عن النبي، صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عمرة في رمضان تعدل حجة» وفي رواية: حجة معي

ومن خصائصه، أنه شهر القرآن «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» [البَقرَة، الآية: 185] فللقرآن فيه شأن في إصلاح القلوب والهداية للتي هي أقوم لمن تلاه وتدبره وسأل الله به، وكم جاء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من بيان لفضل تلاوة القرآن ؟ بقوله، صلى الله عليه وسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» وقوله، صلى الله عليه وسلم: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي شفيعاً لأهله يوم القيامة» وقوله، صلى الله عليه وسلم: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً» وقوله، صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه» وكلها أحاديث صحيحة، متضمنة لأعظم البشارات لتالي القرآن عن تفكر وتدبر، فكيف إذا كان في رمضان؟!! جعلنا الله من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

وقفات رمضانية

الجنة ثواب الصابرين على فقد البصر

حدثنا عبدالله بن معاوية الجمحي حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا أبو ظلال عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يقول إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة وفي الباب عن أبي هريرة وزيد بن أرقم.

اما قوله: «إن الله يقول إذا أخذت كريمتي عبدي» أي أعميت عينيه الكريمتين عليه وإنما سميتا بها لأنه لا أكرم عند الإنسان في حواسه منها «لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة» أي دخولها مع السابقين أو بغير عذاب، لأن العمى من أعظم البلايا، وهذا قيده في حديث أبي هريرة الآتي بما إذا صبر واحتسب.

قوله: «وفي الباب عن أبي هريرة وزيد بن أرقم» أما حديث أبي هريرة فأخرجه الترمذي في هذا الباب وأما حديث زيد بن أرقم فأخرجه البزار من رواية جابر الجعفي بلفظ: «ما ابتلي عبد بعد ذهاب دينه بأشد من ذهاب بصره ومن ابتلي ببصره فصبر حتى يلقى الله لقي الله تبارك وتعالى ولا حساب عليه». قال الحافظ في الفتح وأصله عند أحمد بغير لفظه بسند جيد انتهى.

قوله: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه» وأخرجه البخاري ولفظه: إن الله قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه.

الإعجاز القرآني

«وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (المائدة: 38).

قال الأصمعي قرأت هذه الآية وإلى جنبي أعرابي فقلت والله غفور رحيم سهواً فقال الأعرابي كلام من هذا قلت كلام الله قال أعد فأعدت والله غفور رحيم فقال ليس هذا كلام الله فتنبهت فقلت والله عزيز حكيم فقال أصبت هذا كلام الله فقلت له أتقرأ القرآن قال لا قلت فمن أين علمت أني أخطأت فقال يا هذا عز فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع.

من روائع أخلاق الرسول رد الأمانات

رَدُّ الأمانات إلى أهلها عند الهجرة

عن عائشة رضي الله عنها في هجرة النبي صلي الله عليه وسلم قالت: وأمر – تعني رسول الله صلي الله عليه وسلم– عليا أن يتخلف عنه بمكة، حتى يؤدى عن رسول الله صلي الله عليه وسلم وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته.. فخرج رسول الله صلي الله عليه وسلم ،وأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق رسول الله.

رد مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة

عن ابن جريج قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا»، قال: نزلت في عُثمان بن طلحة بن أَبِي طلحة، قَبض منه النبي لا يأكل «تمرة» ربما سقطت من الصدقة.

عن أبي هريرة عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «وَاللَّهِ إِنِّي لأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي – أَوْ فِي بَيْتِي – فَأَرْفَعُهَا لآكُلَهَا ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً – أَوْ مِنَ الصَّدَقَةِ – فَأُلْقِيهَا» البيهقي: السنن الكبرى، ابن كثير: البداية والنهاية، الطبري: تاريخ الأمم والملوك.

لطائف تأخير إجابة الدعاء

قال الإمام ابن الجوزي–رحمه الله–: «تأملت حالة عجيبة، وهي: أن المؤمن تنزل به النازلة فيدعو، ويبالغ، فلا يرى أثرا للإجابة، فإذا قارب اليأس؛ نظر حينئذ إلى قلبه، فإن كان راضيًا بالأقدار، غير قنوط من فضل الله–عز وجل–، فالغالب تعجيل الإجابة حينئذ؛ لأن هناك يصلح الإيمان ويُهْزَم الشيطان، وهُناك تَبِين مقادير الرجال.

وقد أُشير إلى هذا في قوله تعالى: «حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ» [البقرة: 214] وكذلك جرى ليعقوب–عليه السلام– فإنه لما فقد ولدًا، وطال الأمر عليه، لم ييأس من الفرج، فأُخذ ولده الآخر، ولم ينقطع أمله من فضل ربه: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا» [يوسف: 83]، وكذلك قال زكريا–عليه السلام –: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا» [مريم 4].

فإياك أنْ تستطيل مدة الإجابة، وكن ناظرًا إلى أنه المالك، وإلى أنه الحكيم في التدبير، والعالم بالمصالح، وإلى أنه يريد اختبارك ليبلو أسرارك، وإلى أنه يريد أن يرى تضرعك، وإلى أنه يريد أن يَأْجُرك بصبرك، إلى غير ذلك، وإلى أنه يبتليك بالتأخير لتحارب وسوسة إبليس.

وكل واحدة من هذه الأشياء تقوّي الظن في فضله، وتُوجب الشكر له؛ إذ أهّلكَ بالبلاء للالتفات إلى سوّاله، وفَقْرُ المضطر للجئ إليه غنىً كله.

المرجع: صيد الخاطر
للإمام: ابن الجوزي –رحمه الله–